نهاية دون خوان..

قصة جديدة بقلم صباح محيي الدين

[مهداة الى ...]

قال الراوي :

مذ تفتحت نفس دون خوان للحياة وهو كالاعصار لا يهدأ ، يعيث دماراً في قلوب النساء ويزرع الرعب في نفوس الرجال، آباء كانوا او أزواجاً او إخوة.. وقد طوّف دون خوان في ممالك اوربا كلها ، فاذا له في كل بلاط مخادع غرام وفي كل مدينة مطارح حب ... ولكنه على كثرة تقلبه لم يترك في مكان ذرة من روحه ، وما كان هواه ، على تعدده ، إلا قدراً يسوقه دون هوادة ... حتى بلغ الاربعين .

* * *

الأفق عليقة تلتهب بنيران الأصيل ، والسماء حديقة أزهر فيها العصفر والبنفسج والورد، والوادي الكبير يتلوى كافعوان حرافي ملون الحلقات ، يلتف بكسل حول إشبيلية التي تنوء بهذا الاصيل من تموز ، كأنها من أنفاسها الحرّى تحت سرادق من الرصاص .

وفي الحي الذي تتكأكأ ببيوته خلف الكاتدرائية كأنها نسوة تحلقن لحديث خفي ، كان دون خوان يدرع بهو داره كالأسد الحبيس ، وقد غاب نظره في افق بعيد . وكان هذا ديدنه كل يوم منذ شهرين تقريباً ، منذ رأى كارمن لأول مرة في اعياد عيد الفصح .

وارتسمت على شفتي دون خوان بسمة ضئيلة فيها الحنان وفيها الشوق والتطلع ، وعاد به خاطره الى ذلك اليوم المشهود، يوم كان يسلي ملاله بالاختلاط بعشرات الألوف من الواردين على إشبيلية بخيلهم ورجلهم للاشتراك في مهرجانات العيد العظيم، فيقف على الرصيف ليشهد موكب التائبين بمسوحهم السود يحملون الصلبان والشموع وصور القديسين ، او يتذوق النبيذ الاشبيلي الابيض في احد الحوانيت المقامة في الهواء الطلق ، او يتبع بنظره فتاة استردفها حبيبها على حصان ابيض وقد ارتدت فستانها الفضفاض المكشكش وزرعت وردة حمراء في شعرها الاسود وأخذت توزع النظرات الماجنة على الرجال ، كل الرجال .

وكان دون خوان يحب هذه الجموع من البشر يخوض عبابها كأنها بحر من النسيان . فهو كان ينشد النسيان ، نسيان الكهولة المكشرة عن أنيابها المقبلة عليه بالشيب وبالبرد في العظام والدم . فهو قد جاوز الاربعين منذ أعوام قلائل ، واستقر ثقلها في نفسه ، ولكن ذلك لم يحن من قوامه السامق ولم يطفيء بريق عينيه بل ملأهما دنى من التجارب وأضفى عليه من الرجولة الرزينة ما تخفق له قلوب العذارى وتحنو اليه كل النساء .

وسار دون خوان كأن الأرض ملكه ، فقد داخله الفرح الذي ساد المدينة على وسعها ، وساقته قدماه نحو برج الذهب القائم على ضفة الوادي الكبير ، حيث اقيمت منصة واسعة يتبارى عليها الراقصون ، ووقف مع الواقفين يتفرج ويفتح أسماعه لرنة القيثار . ولم يكن دون خوان ليدري بان قدره قد ساقه الى هذه المنصة بعينها ليحول مجرى حياته على انغام رقصة غجرية ، وإن يكن قد أحس بهيجان يسري في عروقه حين اخذ العازف يجري اصابعه بسرعة محمومة على الأوتار يستنطقها نغماً شبقاً يركض في السمع كأنه سيل من النار .

ثم توقف العزف وبدت كارمن . وعلم دون خوان ان اسمها لا يمكن ان يكون إلا كارمن ، إذ جمعت كل ما يلهب الخيال ويجمح بالقلب في نساء إشبيلية ، واخذت كارمن ترقص ...

وبدأت تتلوى — والاوتار تصاحبها — دون ان يتحرك في جذعها عرق . فقد تركزت الحركات في ذراعيها يعيشان لذاتهما وينطقان بلغة الصناجات ، بينا مال عنقها على كتفها وانسرح شعرها الفاحم يداعبه النسيم الآتي من النهر ، فكأنها شجرة سامقة تسري فيها الريح — ريح الموسيقى — فتصفق باغصانها وتهزج بآلاف الاوراق فيها .

ثم تسارع الايقاع، وأخذ القيثار يزفر زفير اغصان الصنوبر تجري فيها النار فتنفجر وتقذف بألسنة اللهب ، وانطلقت كارمن — كأنها أصيبت بمس او ركبها شيطان الرقص — تضرب الارض بعنف طوراً ، وتداعبها طوراً آخر بلطف

كأنها تهدهدها .

وكما بدأت فجأة توقفت دون إنذار وهوت على الارض كعصفور جريح تناثر ريشه الجميل وأغمضت عينيها في إجهاد لذيذ . وعلم دون خوان ان مصيره قد تعلق بهذه الفتاة وانه مقبل على احداث خطيرة .

ولم يتأخر لحظة امام السبيل التي شعر انها خطت له بيد القدر ، فتقدم من كارمن يهنئها ، ثم استأذن منها ان يرافقها في عودتها الى بيتها ، فقبلت بعد ان ألقت عليه نظرة خاطفة ، فحصته فيها من فرعه الى قدمه ، وزانته وكالته .

وسار الاثنان هنيهة معاً ينظران الى النهر تمخر فيه القوارب المزينة بالاقمشة والسجاجيد الملونة ، تبث في انحاء الافق رنات القيثار وهزج الاشبيليين يرقصون ويغنون . ثم عبرا الجسر الكبير وتوجها نحو حي « تريانا » حيث يقيم الغجر ، المنتشرون في انحاء اسبانيا يعيشون فيها فساداً ويملأونها موسيقى وشعراً .

ولقد أحب دون خوان هذه الواحة وسكن اليها ، ولزمها فلا يفارقها الا لماماً . ولقد خالط وجه كارمن وعيناها الذبيحتان الذابحتان كيانه ، واستقى من جسمها الريان شباباً جديداً وعشرين ما كان يحلم بعودتها . ولم يبخل عليها بشيء ، إذ لم يعد لشيء سواها قيمة لديه ، فأغدق عليها هداياه واستحضر لها القلادات من طليطلة والحرائر من غرناطة والعطور من اقاصي الارض ، فغدت الغجرية ترفل في حلل لم يكن لها في اشبيلية مثيل . وملأت علاقة دون خوان بكارمن الاسماع ، فعجب لها بعض الناس — ألم يكن دون خوان قد بدأ يهدأ ويثوب الى رشده ؟ — اما الاصدقاء فهزوا رؤوسهم امام القدر المحتوم يسوق الضليل وقطعوا عنه زياراتهم شيئاً فشيئاً .

ولم يأبه دون خوان بكلام الناس أو بخذلان الاصدقاء ، إذ كان بغنى عنهم في حبه يحيا فيه ساعات هنيئة ساعة ، واخرى عاصفة ترتج لها اركان حياته .

وامس ، كان الجو عاصفاً بينه وبين كارمن ، وليس يذكر ما دعاها الى ان تثور ، فهي كالبحر لا أمان لها . وقد افترقا شبه غاضبين ، وعوّل دون خوان أن لا يعود اليها قبل اسبوع . ولكن ها هو ، وقد دنا موعده اليومي معها ، يدور كالاسد الحبيس . ذلك ديدنه منذ شهرين ، كلما تشاجرا لا يكاد ينام الليل ويقضي النهار مريضاً من القلق .

وإذ دقت السادسة في ساعة الكاتدرائية لم يعد دون خوان يطيق صبراً فخرج من بيته الى الشارع علّه يجد سلواه في وجوه المارين وضجة الحياة في المدينة . وسارت به خطاه نحو سوق الصاغة واخذ ينظر الى الواجهات فعلق نظره في قرطين من الذهب المشغول كأنه تطريز يدوي ، تنام في شباكها لؤلؤتان صافيتان تبرقان بريقاً خافتاً حيياً . وبدا له ان تينك اللؤلؤتين عينا كارمن ترنوان اليه كما تفعل كلما جاءها يفجأها بهدية جديدة . ودخل الدكان — في وَلَهٍ — فابتاع القرطين ثم توجه مسرعاً نحو حي « تريانا » دون ان ينتظر هبوط الليل كالمعتاد .

ها هو البيت ، وها هو الدرج الخارجي الذي صعده مرات لا يذكر عددها ، وعاد منها مثقلاً بالسعادة كالغائص الى قاب البحر يأتي بالدر والمرجان . واخذ يصعد الدرجات ببطء وهو يمسك سيفه بيده كيلا يسمع صليله ، واخذ يبتسم وهو يتخيل دهشة كارمن حين ستفتح له الباب .

وإذ لم يبق بينه وبين الباب سوى درجتين جمد في مكانه كأنه تمثال من الحجر ، فلقد سمع لغطاً وراء الباب ، وتبين صوت رجل يضحك وصوت امرأة — انه صوت كارمن ! — يجاوبه . وكاد دون خوان ان لا يصدق اذنيه ، ثم قال : لعله اخٌ لها او ابن عم . ولكن كارمن قالت لي انها وحيدة لا اخ لها ولا ابن عم ... اذن من هذا ؟

واحس ببرد قارس مقيت يدب في انحاء جسمه كأن الموت ينشب اظفاره فيه وبدت قطرات من العرق على جبينه . ثم اجتاحه غضب هائل كرّ في عروقه كالمعدن المذاب وانطلق كالثور الهائج نحو الباب . ولكن شيئاً في نفسه استوقفه ، ودعاه الى التسلل بخطى الذئب ، ثم وضع اذنه على خشب الباب واخذ ينصت ، فسمع صوت كارمن تقول :

— ابقَ قليلاً بعد .

وصوت رجل فيه حرارة الشباب ودعابه :

— لا .. لقد حان موعد صاحبك .

— ذلك العجوز القرد .. ما اظنه يأتي اليوم .. لقد تخاصمنا امس فألقيت في وجهه من الكلام ما يمنع كلباً من العودة ، فما بالك برجل ؟

— كيف تقولين هذا عنه ، وهو متعلق بك .. وانت كذلك كما يقال .

— ها ! ها ! قبح الله وجهه . لولا ما يعطيني لما تحملت شيخوخته .

ـ اهو شيخ ؟ لقد قيل لي انه في عنفوان الرجولة .

ـ عنفوان الرجولة ؟ لقد جاوز الاربعين ، وليس ذلك ما يلزمني للثماني عشرة التي ما اكملتها بعد .

ـ وما يلزمك اذن ؟

وظل هذا السؤال دون جواب ، اذ ساد الغرفة ضجة عظيمة . وانقلب كرسي على الارض . ثم ارتجّ السرير كأن كارمن والشاب قد أهويا عليه معاً . ورنت قبل متسارعة اعقبها ضحك رخو .

ثم عاد صوت الشاب يقول في دلٍ :

ـ كيف تفضلين شاباً فقيراً مثلي على دون خوان الغني النبيل ، الذي اخضع لسحره اجمل نساء اسبانيا ؟

فقالت كارمن :

ـ لست ادري اين هذا السحر الذي يتحدثون عنه في اشبيلية .. انه شيخ قبيح ، وسأقولها له اذا جرؤ وعاد الليلة . لقد سئمت حياة النفاق ، ابتسم له وابدي السرور وعيناي على الساعة تنتظران ذهابه ، وهو يشكو لي هيامه وغرامه في الفاظ لا افهمها ، ويطلق علي اسماء لا ادرك معناها . اتدري كيف يسميني ؟ انه يسميني « واحة » أتدري انت ما هي الواحة ؟ ثم ما لي وللكلام ، انا اريد الحياة تنبض دماً وتنطق صخباً وهياجاً .

وهنا قاطعها الشاب مستضحكاً :

ـ ها ! لقد فهمت . اذن فهو .. فهو ..

فانفجرت كارمن ضاحكة :

ـ لا . ليس الأمر كما تظن ، فما زالت فيه بقية ، ولكن قوله اكثر من فعله ، وهو محدث اكثر منه خليلاً .. ومهما يكن ، فما ابعده عنك في هذا المجال .

وخيل الى دون خوان ان البيت يميد على أسسه ، إذ انقلبت الغرفة الى ميدان صراع واختلط فيها الصياح والضحك وتعالت شهقات كارمن تنفذ من خلال الباب كأنها سهام اريشت إلى قلبه .

وكان دون خوان ، طيلة هذا الحوار بين كارمن وصاحبها يشرب كل لفظة بشغف ، ويجد لذة كبيرة في آلامه ، ويستقبل السهام بصدره علها تصيب منه مقتلاً . وبعد هنيهة ، سكنت نأمة صاحبي البيت كأنها يستريحان من النضال ، وغاب صوتاهما عن مسمع دون خوان وملأه وجيب الدم يدق كالمطرقة متسارعاً في صدغيه ، واسدل الغضب على عينيه غشاء قرمزياً . فامتدت يده الى مقبض سيفه وانتضاه وبدا في وجهه بريق القتل .

ولم يدم الامر إلا لحظات استرخت بعدها ذراعه ، وهز دون خوان كتفيه في استسلام ثم اعاد سيفه الى غمده ونزل الدرج ببطء المريض الناقه وذهب على وجهه في الشوارع التي ذهّبها المغيب .

وعادت به قدماه الى الجسر الكبير فوقف عليه يذكر اول يوم مرّ فيه هناك مع كارمن ، ثم نظر الى النهر الوادع ، وطافت في ذهنه صور من الراحة الابدية ، وبدا له ان التيار يفتح له ذراعين من السلام والطمأنينة . وانتفض دون خوان وطرد فكرة الموت ، وتوغل في المدينة التي شهدت هناءته منذ ساعة او اقل ، فوجدها لم تتغير في شيء ، ورفع عينيه الى مأذنة الكاتدرائية لعلها مادت على اركانها فوجدها قائمة تطاول السحاب ، وآخر اشعة الشمس تموت على تمثال الايمان الذي يعلو قمة المأذنة .

وشعر دون خوان في قرارة نفسه انه انتهى ، وان واحته التي علل النفس في الخلود اليها لم تكن الا سراباً ، وان كل الواحات التي استظل فيها وارتشف من ينابيعها لم تكن الا سراباً .

ولم يفق من حلمه الحزين الا امام باب الكاتدرائية ، ونظر الى الداخل ، فرأى الشموع تذوب في طمأنينة امام تمثال العذراء ، عذراء اشبيلية ذات الدموع ، فانساب في نفسه المعذبة فيض من السلام واجتذبه الهدوء الشامل في بيت الله ، فدخله بخطى المتخوف المتشوق ، ثم ركع امام العذراء يصلي .

* * *

قال الراوي :

وصحت توبة دون خوان فلبس مسوح الرهبان ، وأمضى بقية عمره في التعبد والاحسان ، وباع كل ما يملك وكرّس ماله لبناء مستشفى للفقراء والعجز والنساء الطريدات . وما زال المستشفى قائماً في إشبيلية ، وفيه سيف دون خوان وقناعه .

وبلغ من تقى دون خوان ان ألقيت اليه أمور الدير الذي دخله ، فأداره خير إدارة ومات فيه في ريح القداسة ... وقيل ان بعض المعجزات قد حدثت على قبره .. ولكن لذلك حديثاً آخر .

باريس — **صباح محي الدين**